تركيا: لمحة تاريخية

كتبه: نورمان ستون

وليام أرمسترونج

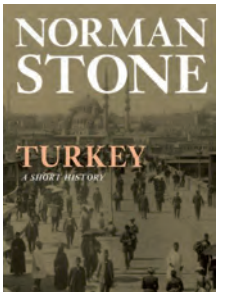

التاريخ التركي ممتد على مدار 1300 عام، يقترح نورمان ستون أنه: "إذا كنت تركيًا، فينبغي عليك أن تسأل نفسك بِمَ تدين لـ: (1) التقاليد التركية القديمة الأصلية، (2) بلاد الفرس؛ (3) الإمبراطورية البيزنطية، (4) الإسلام، (5) أي نوع من الإسلام؟ و(6) التغريب الواعي". لكن من غير المتوقع، أن نتصور أن كل تركي معاصر واع بهذه الأمور وبالتراث التاريخي. تكمن قوة هذا الكتاب الرئيسة، في إظهار الاستمرارية وكذلك التغييرات المفاجئة، التي تشكل الكثير من جوانب التاريخ التركي. يخبرنا ستون أن الإمبرطورية العثمانية، رأت في البداية أنها وريثة تراث السلاجقة الأتراك واليونانيين والبيزنطيين. وحتى فتح القسطنطينية عام 1453، برزت "الإمبرطورية العسكرية" العثمانية وظهر العثمانيون كفرسان رحل على نهج السلاجقة، كما تم بناء قصر توبكابي بأجنحته وباحاته بعد وقت قصير من الفتح، وبطريقة تحاكي مقر زعيم الأتراك الرحل. ومن جهة أخرى، محمد الثاني (فاتح القسطنطينية) كان يتحدث اليونانية بطلاقة، وكان "يتعين عليه السيطرة على الإمبرطورية الرومانية الشرقية التي حكمها الإمبراطور جستنيان في القرن السادس." وهناك أيضًا حقيقة تقول إنه عندما استولى العثمانيون على المدينة كان 75٪ من سكانها من المسيحيين.

تزايدت مشاعر الثقة "العثمانية" بالهوية في القرن الخامس عشر، ولاسيما في ظل حكم سليم الأول (المعروف لدينا باسم "the Grim"، على الرغم من أن الترجمة الأكثر دقة للكلمة التركية "Yavuz" هي "العابس" أو "الصعب"). تمت السيطرة على معظم شبه الجزيرة العربية، ولاسيما الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، الأمر الذي جعل الإمبرطورية العثمانية تبدو إسلامية. وخلال فترة حكمه استحوذ العثمانيون على الخلافة الإسلامية من الدولة المملوكية المضمحلة في مصر. وفي عهده أيضًا، بدأ السلاطين العثمانيون التفاخر بالعز والعظمة، واستخدموا ألقاب مثل "ظل الله على الأرض". وارتبطت العظمة بذروة القوة العثمانية، خاصة مع حكم سليمان (القانوني) الطويل، الذي امتد من عام 1520 حتى عام 1566. في عهده، حققت الإمبرطورية العثمانية سلسلة من الانتصارات العسكرية، واتسعت الأراضي العثمانية. ولم يكن السلطان سليمان مجرد عبقرية كاريزمية ولكن، كان أيضًا منظمًا لآلة الدولة، ويعرف في تركيا باسم قانوني أو صانع القانون. يكتب ستون بإعجاب: روما للقانون والتنظيم، والإسلام مصدر للإلهام، وآسيا الوسطى للجيش" ومع ذلك، فإن الأمور تتغير.

صحيح أن الضوء يحرق ألمع ما في اللحظات قبل أن ينطفأ، ولكن ما حدث للإمبرطورية العثمانية بعد عهد السلطان سليمان لم يكن تحولًا سريعًا نحو الركود، ولكن تراجعًا بشكل غير عادي، استمر حتى القرن العشرين. يوجه ستون سؤالًا في بداية الكتاب: "إلى أي مدى كان نجاح العثمانيين قائمًا على أساس الإسلام؟ أو يمكنك القراءة بطريقة مختلفة وتقول: إن العثمانيين نجحوا عندما لم يأخذوا الإسلام على محمل الجد؟" لا تحتاج بالضرورة أن تجيب عن هذا السؤال بطريقة واحدة أو أخرى. فصحيح، أن انحدار الإمبرطورية العثمانية تزامن مع التراجع الفكري، الذي رمز إليه إغلاق مدارس الرياضيات والهندسة وضمور البحث العلمي في القرن الثامن عشر. ومن الصحيح أيضًا أنه، طوال فترة الإمبرطورية، لم يتم التوقف عن فرض الضرائب على غير المسلمين من الأقليات للحفاظ على الجهاز البيروقراطي، وأيضًا للقوات العسكرية (الإنكشارية) والنخبة، والوزراء (الذين كثيرًا ما استحوذوا على السلطة الحقيقية، بدلًا من السلاطين الذين كانوا الحكام شكليًّا في كثير من الأحيان). لقد حافظ المسيحيون واليهود على الاقتصاد العثماني على مر القرون الثامن عشر والتاسع عشر، ولاسيما عندما حرم الإسلام الفائدة على الديون. وتم استخدام عبارة "التنازلات" مع الأوروبيين للقيام بأعمال تجارية في الأراضي العثمانية، وقد كانت ترمز تدريجيًّا لسيطرة القوى الغربية التي بدأها الأوروبيون على العثمانيين. في البداية كانت وسيلة من الوسائل المعقولة لتحفيز التجارة مع الغرباء (دولة واثقة من نفسها تتطلع إلى الخارج)، لكن هذه العبارات أصبحت في نهاية المطاف سيئة السمعة ومذلة حيث استغلها الأوروبيون لكسب المزيد من النفوذ على السلطة الآخذة في التراجع. ولم يشعر العثمانيون بالقدرة على إلغاء التنازلات حتى الحرب العالمية الأولى، عندما أصبحت إمبراطوريتهم عاجزة ومدمرة، مثلما تفعل الإمبراطوريات العظمى عندما تقترب من النهاية.

قبل نشر هذا الكتاب، كان ستون قد اكتسب سمعة سيئة بسبب آرائه حول "حوادث" الأرمن في الأعوام 1915–1917، وليس هناك مجال للحديث عن ذلك هنا. إنه يشخص ما حدث للأرمن في الإمبراطورية العثمانية، على أنه مشهد واحد من قصة كبيرة حدثت في جميع أنحاء الأراضي العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وفي نفس الوقت تقريبًا الذي تعرض فيه الأرمن لمذابح على أيدي الأتراك، على سبيل المثال، كان المسلمون أنفسهم يتعرضون لفظائع وللتهجير قسرًا في البلقان والقوقاز؛ وكان اليونانيون والأرمن، هم من ارتكب الجرائم أيضًا ضد الأتراك المسلمين. وهكذا، يبدو أن ستون يعتقد أن المشكلة لا تقتصر على الأتراك. ويقول إنه حدثت نفس القصة خلال القرن التاسع عشر، ووقعت أعمال وحشية بين اليونانيين والأتراك في بحر إيجة، وتعاطف البريطانيون مع اليونانيين. لذا يرى ستون، أنه إذا ما تم اعتبار ما حدث للأرمن إبادة جماعية، فإن ما حدث للمسلمين أيضًا في البلقان وفي أراضي الإمبرطورية الروسية يعد إبادة جماعية.

وصحيح أن الجرائم ضد مسلمي الإمبرطورية العثمانية لاقت اهتمامًا قليلًا نسبيًّا من قبل المؤرخين الغربيين، لذا فإن ستون محق في تسليط الضوء على هذه الجرائم. ولكن ما حدث للأرمن كان حقًّا شيئًا مختلفًا تمامًا. لن تفيد المقارنات مع ألمانيا النازية، ولكن لا جدال أن الحقائق تؤكد أن مئات الآلاف من الأرمن لاقوا حتفهم. عمومًا، مصطلح "الترحيل" غامض بشكل يتناسب مع وصف المذبحة المتعمدة ضد الكثيرين، وموت الآخرين، وإعادة التوطين القسري وغير ذلك من الأحداث. وسوف يستمر

النقاش (وربما "الغضب") من حيث دوافع وآثار السياسة العثمانية في الأناضول الشرقية. لا شك، أن إجلاء الأقليات المسيحية من جميع الأراضي التركية كان مطلبًا لدى الشباب التركي آنذاك، وسواء كانت جميع عمليات القتل متعمدة أو غير متعمدة، فإنه يتعين التحقيق من ذلك بأي وسيلة مهما كانت. يعتقد ستون بشدة أن ما حدث للأرمن هو رد فعل مشروع على أعمالهم الإرهابية ضد الأتراك.

من الواضح أن ستون متحمس لطرح قضية الأتراك التي لم تحظ بالاهتمام الكافي. ففي مقدمة الكتاب، يؤكد قائلًا:"إنه ليس من حق أي طرف خارجي التعليق" على حالة السياسة التركية المعاصرة. ربما تكون هذه الحجة أكثر منطقية عندما كان أستاذًا في قسم التاريخ في جامعة بيلكنت في أنقرة. لكن هل بإمكانه الحديث عن نفس الشيء بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية؟ إن لم يستطع، فهل يكون محقًّا في انتقاداته للآخرين؟ تبدو تصريحاته حول تركيا الحديثة مبالغًا فيها. يقال إن البلاد سوف تصبح مثل "اليونان وربما نوعًا من الإمبرطورية البيزنطية في أواخر عهدها". فبسبب الانقلاب العسكري في عام 1980، تم إلقاء القبض على 650 ألف شخص، وتعذيب وقتل أعداد لا تحصى، وتم غرس بذور الصراع الكردي الدموي، ويعد هذا الانقلاب "الأكثر إثارة للاهتمام من بين جميع الانقلابات في تركيا"، فقد حصد أقل عدد من الضحايا.

ربما أراد ستون بقوله "ليس من حق أي طرف خارجي التعليق"، أنه "ليس من حق أي طرف خارجي الانتقاد". وكما يشير كنت، فإن المرء يظهر أقصى درجات الاحترام لصديقه من خلال سياسة الصدق ومشاعر الود، واثقًا أن الطرف الآخر حكيم وسيقابله بنفس المشاعر والثقة. لو أن ستون أدرك ذلك، فإن ملاحظاته حول التاريخ التركي، كانت ستصبح أكثر ثقلًا.